فتصورْ هذا المالَ الذى عاد به الشاعر من ممدوحه ومقداره ما تحمل رجل البعوضة من اللبن ، وهذا جميل حسن يروق للسمع ويحلو للخيال . وقال دعبل الخزاعى يذمّ بخيلا :

أتقفل مطبخاً لا شيء فيــه ... من الدنيا تَخاف عليه أكلُ
فهذا المطبخُ استوثقتَ منهُ ... فما بالُ الكنيف عليه قفل[1]
ولكن قد بخلتَ بكلّ شيء ... فحتى السلح منك عليك بخل

فهو قد أقفل مطبخاً فلا يطعم ضيفاً ، وقد سدّ الكنيف لشدّة بخله فخاف حتى السلح كما خافت المرأةُ حتى البول . وذلك منتهى الهجاء ودقة التصوير وبراعة السخرية ، ثم قال فى مكان آخر :

وإنّ له لطباخــاً وخبزاً ... وأنواع الفواكه والشراب
ولكن دونَهُ حَبسٌ وَضربٌ ... وأبوابٌ تطابقُ دونَ باب
يَذُودونَ الذبابَ يمرّ عنهُ ... كأمثال الملائكة العضاب

فكيف ترى هذا الرجلَ حين يكرم ضيوفه بالحبس والضرب وإغلاق الأبواب ، يطرد حتى الذباب ، على أن له طباخاً وفواكه وشراباً فما ينقصه شيء ، لكنها خلة البخل قد سدّت عليه سبيلَ الضيوف . وقد كرد الشعراء وقوفَ الحجاب على الأبواب وكثرتهم عند الأغنياء يمنعون الطارق ويدفعون القادم ؛ وقالوا فى ذلك كثيراً حتى أسرفوا ، ولا سبيل إلى رواية كلّ ما قالوا ؛ ففى كتب الأدب أمثلة منه . وكرهوا الجهلَ فذموا صاحبه ، واستبشعوا اللؤم فتناولوا اللئام وقالوا فى ذلك كثيراً ، فيه النثر والشعر .

وكان أبو العتاهية يذمّ الحرصَ ، ويرى أنه يضرّ بصاحبه ويذل أهله ، ويجد أن الشهوات قاتلة ، ورب ساعة شهوة أورثت صاحبها حزناً طويلا . ولبشار صورة فى أبى عمران يصف فيها غلاظته وثقله فيقول فيه :

ربما يثقل الجليس وإن كا ... نَ خفيفاً فى كفة الميزان
كيفَ لا تحملُ الأمانةَ أرضٌ ... حملتْ فوقها أبا عمران

---

(١) الكنيف : المرحاض .